وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ

شرح الكلمات:

وَلْيَسْتَعْفِفْ: العفّة: تركُ الشهوات (الأقرب). والاستعفاف معناه طلب العفّة (المفردات).

التفسير: هنا يجيب الله تعالى على سؤال آخر وهو: ماذا يفعل أولئك الذين لا يستطيعون أن يتزوجوا؟ فقال تعالى ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾.. أي أن الذين لا يتيسر لهم الزواج عليهم بكبت طاقاتهم.. أي أن يأخذوا ببعض الحيطات والأسباب* التي تخفف من ثوائرهم الجنسية. ولكن عليهم أن لا يزنوا، كما يجب عليهم أن لا يتلفوا طاقاتهم التي تساعد على بقاء النسل، لأنهم في هذه الحالة سيقومون بمسخ فطرتهم، والله تعالى لا يحب القضاء على مقتضيات الفطرة.

لقد واجه المفسرون في تفسير هذه الجملة مشكلة كبيرة، فيقولون إن الله تعالى قد أخبر في الآية السابقة أن النكاح سيبدل فقر هؤلاء غنًى، ولكن يبدو من هذه الآية أن هذا لا يحدث، إذ لو كان الفقر يتبدّل غنى لأمرهم الله تعالى أن يتزوجوا في كل حال، ولكن الله تعالى يقول هنا إن عليهم أن ينتظروا حتى يجعلهم الله أغنياء، فثبت أن النكاح لا يجعل المرء غنيا حتمًا وإلا ستصبح هذه الجملة بلا معنى. (فتح البيان)

ولكن استدلالهم هذا ليس صحيحا عندي، ذلك لأن قوله تعالى ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِه﴾، وعد من الله تعالى، ومن الممكن أنه برغم هذا الوعد الإلهي لا يستعد شخص لأن يزوج بنته أو أَمته من ذلك العبد، وفي هذه الحالة سيبقى هذا بدون زواج، فلذلك ينصح الله تعالى هؤلاء بأنهم إذا لم يجدوا أزواجا فعليهم بالصبر والعفّة إلى أن يغنيهم الله أي أن ييسّر لهم الزواج.

---

* كالصيام والرياضة مثلاً. *(المترجم)*

وأرى أن أكبر سبب وراء مواجهة المفسرين لهذه المشكلة هو أنهم لم يفهموا قول الله تعالى ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فهمًا صحيحا؛ إذ من الخطأ أن يفسّروه بأن عليهم أن لا يتزوجوا ما لم يجدوا المال، ذلك أن الله تعالى لا يتحدث هنا عن شخص فقير لا يتزوج، وإنما يتحدث عن شخص فقير لا يقبل أحد أن يزوجه بسبب فقره. لقد قال الله تعالى من قبل أنه لو وجد الفقير نكاحا، ولكنه لم يرد أن يتزوج بسبب فقره فهذا غير صحيح، بل عليه أن يتزوج فإن الله تعالى سوف يجعله غنيا. أما هنا فقد بيّن الله تعالى أن أحدا لو لم يجد نكاحا بسبب فقره فعليه بالعفّة إلى أن ييسر الله له الزواج. إذًا، فهذان حكمان منفصلان لأن الآية الأولى تعني أن الذي يتزوج متوكلا على الله حقا فإن الله تعالى يهب له الرخاء والغنى فلا يبقى أسير المشاكل، أما هذه الآية فتعني أن الذين يجدون صعوبة في الزواج لفقرهم فعليهم أن يتخذوا بعض الاحتياطات التي تخفف من شهوتهم، وأن يعيشوا عيشة طاهرة منتظرين أن يفتح الله لهم السبيل للزواج.

وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ

شرح الكلمات:

الكتاب: كتابةُ العبد: ابتياعُ نفسه من سيده بما يؤديه من كسبه (المفردات).

التفسير: فبما أن الله تعالى قد ذكر في الآية السابقة أحكاما تتعلق بزواج أسرى الحرب، فقد أوضح الآن أن لا يظن أحد بسبب هذه الأحكام أنه تعالى يحب الرقّ ويريد انتشاره في العالم، إنما أعطى هذه الأحكام بسبب اضطرار الإنسان، وإلا فإنه تعالى يفضّل تحرير العبيد سواء على سبيل الإحسان أو مقابل الفدية. فقال الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾.. أي من أراد من عبيدكم وإمائكم المكاتبة فعليكم بإطلاق سراحه من خلال المكاتبة إن وجدتم فيه الكفاءة. علما أن قوله تعالى ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ لا يعني

أن السيد هو الذي يقرر فيما إذا كانت في عبده هذه الكفاءة أم لا، وإنما يقرره القاضي. فإذا قال القاضي إن هذا العبد أو الأمَة قادر على أن يعيش بنفسه بعد الحصول على هذه الحرية المشروطة، فيُصدر لسيده الأمر بمكاتبته، وإذا لم يجد في العبد الكفاءة لذلك فسيمنعه من المكاتبة كي لا يفسد.

ثم أعطى الله تعالى العبدَ المزيد من السهولة، فقال لسيده لقد بيّنا لك طرق الإنفاق في سبيل الله تعالى ونخبرك بطريق آخر بهذا الصدد، وهو أن تنفق على عبدك الذي نال الحرية المشروطة من مالك لينال الحرية كاملة.

والحقيقة أن القرآن الكريم قد ذكر طريقين اثنين فقط بشأن العبيد حيث قال الله تعالى ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾(محمد:٥).. أي إذا وقع أحد أسيرا في أيديكم نتيجة حرب دينية فإما أن تطلقوا سراحه إحسانًا أو تُخلوا سبيله بأخذ الفدية. ولا يحلّ لكم أبدًا أن تُبقوه عبدًا عندكم وهو يريد أن يتحرر بأداء الفدية.

ولما كان من الوارد أن يكون هناك شخص لا يستطيع دفع الفدية، وتكون حكومته ظالمة فلا تفكر في تحريره، ولا يكون أقاربه أيضًا مكترثين له، أو يكونوا خبثاء يريدون أن يبقى في الأسر ليستولوا على ماله وعقاره، وكان سيده فقيرا لا يستطيع أن يحرره بدون أخذ الفدية، إذ يمكن تماما أن تكون نفقاته على الحرب قد أضعفت حالته الاقتصادية جدا، فلذلك كله قال الله تعالى إن الذين جعلناهم عبيدا لكم ومنحنا لكم القدرة والسلطان عليهم، إذا قالوا لكم: لا يوجد هناك من يفتدينا، ونحن فقراء وعديمو الحيلة وليس عندنا ما نقدمه كفدية نظير حريتنا، ولكنا مستعدون أن نعقد معكم اتفاقا بأنكم إن حررتمونا فسنسدد لكم ما يجب علينا من المال خلال كذا من السنين على أقساط شهرية أو سنوية، ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾.. أي لا بد لكم من تحريرهم ومن تحديد أقساط الفدية لهم شريطة أن تجدوا فيهم الكفاءة لدفع هذا المبلغ. بل ينبغي لكم أن تساعدوهم في ذلك بما أعطاكم الله من مال.. أي أعطوهم بعض المال لكي يقوموا باستثماره ويدفعوا لكم الفدية مما يكسبون. وإذا سددوا الأقساط فسيكونون أحرارا في أمورهم وأموالهم كحرية أي إنسان حر آخر، وسيُعتبرون مالكين لأموالهم.

ولكن كما ذكرنا من قبل أن الناس في الماضي كانوا يشتركون في الحروب كأفراد متطوعين فكانت الغرامة تؤخذ من الأفراد أيضا، أما في هذه العصور فقد أصبحت الحروب قومية فتؤخذ الغرامة من القوم. وبما أنه لم تكن في الماضي جيوش منظمة موظّفة بل كان على الأفراد أن يتحملوا نفقات الحرب، فكان أفضل طريق للاحتفاظ بالأسرى أن يوزَّعوا على الأفراد لكي يأخذوا منهم ما أنفقوا على الحرب، ولكن إذا كانت عند الدولة جيوش موظّفة ولا تقع نفقات الحرب على الأفراد، فلا توزع عندئذ أسرى الحرب على الأفراد، بل يبقون عند الدولة. وما دامت الأمة المحاربة هي التي ستدفع غرامة الحرب في هذه الحالة، فلن تؤخذ من هؤلاء الأسرى أي خدمة وإنما يتم تحريرهم.

باختصار إن الإسلام ينهى عن اتخاذ الناس عبيدا إلا في الحروب الدينية دون الحروب الدنيوية. ولكنه قد أمر المسلمين بصدد هؤلاء أن عليهم أن يحرروهم إحسانا، وإذا لم يستطيعوا ذلك فمقابل فدية. وليس ضروريا أن يدفع الأسير الفدية، بل يمكن أن يدفعها أقاربه أو حكومته. وإذا كانت دولته لا تكترث بتحريره وكان أقاربه ظالمين وكان هو فقيرا فيحق له أن يسأل سيده أن يحدد له مقدار الفدية التي تجب عليه نظير تحريره، ثم يسأله أن يعطيه المهلة المناسبة لدفعها، ويعاهده على دفع الفدية بأقساط شهرية أو سنوية. وبعد هذه المعاهدة سيصبح العبد حرا، ولا يحق لسيده أن يحول دونه ودون هذه المعاهدة بأي طريق، إنما يجوز له منعه من المكاتبة فقط إذا لم يجد فيه خيرا.. أي يكون هناك خطر الحرب أو أن يكون العبد مجنونا أو معتوها لا يستطيع أن يكتسب بنفسه، ويكون هناك خطر أنه سيتضرر من المكاتبة بدل أن ينتفع. وفي حالة المكاتبة يأمر الإسلام أن يُهيأ له بعض المال سواء من قبل سيده أو من قبل الدولة ليستثمره.

قد يقول قائل هنا: إذا جاز منع العبد من المكاتبة حالة كونه مجنونا أو معتوها، فإن الناس لن يحرروا عبيدهم بحجة أنهم مجانين، فيظلون عبيدًا.

والجواب أن القانون الإسلامي في هذه الحالة يأمر العبد أن يتجه إلى الدولة ويخبرها أنه عاقل وقادر على كسب المال، ولكن سيده لا يريد أن يمنحه الحرية من خلال المكاتبة. فيمنحه القاضي حق التحرر.

إذًا، ليس هناك أي حالة لم يحاول فيها الإسلام تحرير العبيد. فأولاً أمر السيد أن يحرره بإحسان، وثانيًا إذا لم يستطع السيد ذلك قال للعبد أن يتحرر نظير فدية، وإذا لم يستطع دفع الفدية فعليه بالمكاتبة ويقول لسيده: سأدفع لك هذا المال بأقساط فأَعْطِنِي مهلة سنتين أو ثلاثة، وبمجرد أن تتم هذه المعاهدة سيُعَدّ حرا. وبعد هذه التسهيلات كلها إذا لم يرد أحد من العبيد أن يتحرر فلا بد من القول إنه يفضل هذا الرق. والحق أن الصحابة كانوا يعتنون بعبيدهم ويعملون على راحتهم نتيجة تعاليم الرسول ﷺ لدرجة أن العبيد كانوا يفضّلون الرق على الحرية.

أما قوله تعالى ﴿وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ فقد نبّه به إلى أمر لطيف للغاية، وهو أن ما في أيدي الناس من أموال إنما هي أمانة في الحقيقة، إذ فيها حقوق للآخرين أيضا، ومن واجبهم أن يؤدوها لهم. عليهم أن يفرحوا بأن من أكبر الجوائز لهم أن العديد من إخوانهم، الذين هم مشتركون معهم في هذه الأموال، يعيشون على ما ينفقون عليهم، وهكذا شرفهم الله تعالى بأن يساهموا في ربوبية خلقه تعالى.

وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾

التفسير: أي لا تكرهوا إماءكم على ارتكاب الفاحشة. وبما أن الحديث يدور هنا عن العبيد الذين يريدون المكاتبة أي الحرية المشروطة لذا فستعني الفتيات هنا

الإماء اللاتي يردن الحرية المشروطة. والمراد أن إماءكم اللاتي يردن هذه الحرية المشروطة لا تجبروهن، طمعًا في بعض المنافع المادية، على ارتكاب الفاحشة بالحيلولة دون حريتهن، بمعنى أن الأمة إذا أرادت تجنب الزواج الجبري منكم بحصولها على الحرية المشروطة وأرادت أن تتزوج بحريتها الكاملة بعد حصولها على الحرية الكاملة؛ فالحيلولة دون رغبتها هذه هي بمنـــزلة إكراهكم إياها على الفاحشة.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَمَنْ يُكْرِهُّنَّ فَإِنَّ اللهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.. أي إذا حال أحد دون رغبة المرأة التي تريد أن تتحرر وبالتالي أجبرها على النكاح الذي لا ترغب هي فيه، فهو المسؤول عن البغض والكراهية التي تتولد في قلبها ولا إثم عليها، لأن البغض وعدم الولاء الذي يتولد في قلبها إنما هو نتيجة إكراه الرجل.

وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾

شرح الكلمات:

مشكاة: المشكاة: كلُّ كُوّةٍ غيرُ نافذةٍ (الأقرب).

الزجاجة: القطعة من الزجاج (الأقرب).

دُرِّيّ: يقال كوكب درّي أي ثاقب مضيء (الأقرب).

التفسير: لقد بين الله تعالى في هذه الآية أن النور السماوي وكذلك النور الأرضي كليهما ينـــزلان من عند الله تعالى.. أي أن الشريعة الحقّة تنـــزل من السماء، وأن نشرها في الأرض يتم أيضا بفضل الله تعالى. إن مَثل نور الله تعالى كمشكاة فيها سراجٌ قويٌّ الضوء داخلَ غطاء زجاجي كأنه كوكب مضيء. ذلك لأن الخبرة الإنسانية تؤكد أن ضوء المصباح أفضل ما يكون حين يكون وراءه حاجز يمنعه من الانتشار في كل جهة ويركّزه إلى جهة واحدة، وقد أشير إلى المعنى هنا بلفظ ﴿كَمِشْكَاةٍ﴾. ثم إن ضوء المصباح يصل بعيدا إذا ما كان المصباح داخل غطاء من زجاج شفاف جدا، وكان الزيت الذي يوقد منه المصباح عاليَ الجودة. وقد أُشير إلى المعنى بقوله تعالى ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾. ولفظ ﴿مُبَارَكَةٍ﴾ مشتق من البركة، وهي المكان المنخفض يجتمع فيه ماء المطر من كل مكان. وعليه فالمراد من ﴿شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ أنه قد اجتمعت فيها المزايا والمحاسن كلها. ثم سمّاها الله تعالى ﴿زَيْتُونَةٍ﴾ ليشير إلى أن الوحي الذي ننـــزله الآن يكون سببًا في انتشار العلوم والمعارف الجديدة في الدنيا. ذلك لأن شجرة الزيتون تعطي الثمار، كما أن خشبها وزيتها يُستعملان للوقود والإضاءة، كما أن أوراقها وقشورها مفيدة أيضا. كما يُستعمل زيتها بطرق شتى، فمثلاً يوضع في المخلّلات ليحافظ عليها لمدة طويلة. لقد بين الله تعالى بهذه اللغة التمثيلية أن التعاليم التي جاء بها موسى وعيسى – عليهما السلام – كانت لتصبح آسنة غير صالحة للعمل في يوم من الأيام؛ ولكننا قد أنـــزلنا الآن للناس شرعًا لن يتعرض للعفونة والفساد، بل سيمـــدّ العقول الإنسانية بنور يكشف لهم على الدوام علوما جديدة ومعارف حديثة.

يقال عن النور عادة أنه اسمٌ لذلك الشيء المادي الذي يتولد باحتكاك جسمين مادّيين، فكيف سُمي الله نُورَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إذًا؟

لقد أجاب النحاة على هذا السؤال بقولهم إن هنالك محذوفًا قبل ﴿نُور﴾ والتقدير: "الله صاحبُ نورِ السماوات والأرض" (إملاء ما منّ به الرحمن). أي كل نور في السماوات والأرض هو في قبضة الله وسلطانه، فمن أراد الرقي فعليه أن يكون على صلة مع الله تعالى.

أما أصحاب "علم المعاني" فقالوا: لقد استُعمل لفظ النور هنا مجازا واستعارة، والمراد أن المرء كما يميّز بين الجيّد والرديء من الأشياء بمساعدة النور كذلك لا يتمكن الإنسان من التمييز بين الخير والشر إلا بهدي الله تعالى، لأنه تعالى منبع أنوار السماوات والأرض.

أما علماء اللغة فقالوا: إن هذا الكلام مثلٌ من الأمثال، حيث يقال "نور البلد" لإنسان يعتمد عليه أهل البلد كلهم، ويقال "نور القبائل" لإنسان هو سبب فخر لهم. وبما أن الإنسان لا يمكنه أن ينجح في أي عمل بدون فضل الله تعالى فقيل ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾.

إن هذه المعاني كلها صحيحة، ولكني أرى أن الله تعالى قد لفت بقوله ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أنظارنا إلى أمر آخر حيث قال إنكم لو أردتم إضاءة أي شيء في السماوات والأرض فأَدْخِلوا فيه نور الله تعالى فيُضيء. فعندما ينـــزل نوره تعالى على بيت سيستنير، وحين ينـــزل على قلب سيصبح منورا. ذلك لأن هذا النور لما نـــزل على بيت الله الحرام صار هذا البيت مركزا لهداية الناس؛ ولما نـــزل على المسجد النبوي أصبح ذلك المسجد نموذجا يُحتذى به في كل المساجد، مع أنه لم يكن إلا بناء صُنع من طين ولبن. ثم لما نـــزل هذا النور على القلب المطّهر لرسول الله ﷺ صار شمسا للعالم الروحاني. وليس القرآن إلا نفس الحروف التي تُستعمل في العربية يوميا، وليس ورقه إلا نفس الورق الذي تُطبع عليه جميع الجرائد والكتب، وليس حبره إلا نفس الحبر الذي يُكتب به شتى الأبيات السيئة والفاحشة؛ ولكن إذا نـــزل القرآن المكتوب بنفس الكلمات وبنفس الورق وبنفس الحبر صار هداية للدنيا كلها. وهذا هو الأمر الذي أشير إليه في قول الله تعالى ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾. فلأن الله تعالى قد تجلى في القرآن الكريم فصار هذا

الكتاب هدى للناس. وحيثما لا يكون هذا النور فلن يُرى هناك إلا الظلام والسواد.

ثم إن الله تعالى قد نبّهنا بقوله ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ إلى أن النور لا يبقى مقيدا في مكان أبدًا، بل لا بد أن يخرج وينتشر. لا شك أن نطاق الظلمة والسواد نطاق محدود، ولكن النور ينتشر دائما. فمثلا ترى أن اليراعة – تلك الدودة المضيئة بالليل – تكون صغيرة الحجم جدا، ولكن ضوءها يُرى في وقت الظلام من مكان بعيد. وعندما يصل المسافر قريبًا من القرية يستطيع أن يراها بضوء هذه الحشرة المضيئة على الأشجار والأعشاب من بعيد ويوقن بأنه قريب من القرية. كذلك مثل الإنسان الذي تشتعل في قلبه جذوة من نار حب الله تعالى، فلو كان صغيرا كاليراعة فلا بد أن يضيء الآخرين أيضًا؛ إذ من المحال أن يصير العبد لله تعالى ثم لا يصبح شمسًا أو قمرًا أو نجمًا بحسب كفاءته واستعداده. إن الذي ينشئ مع الله تعالى علاقة صادقة ويستنير بنوره فإنه ينوّر الآخرين أيضا بأنواره. لقد قال سيدنا المسيح الموعود عليه السلام عن نفسه وهو يصف هذه الحالة ما تعريبه:

كان يكفيني أن يرضى الله عني. إني لم أتمنَّ هذا الأمر أبدا (أي أن أُدعى مسيحًا موعودًا، أو أن أُعَدَّ أفضل من المسيح بن مريم عليه السلام). لقد كنت في زاوية الخمول، ولم يكن أحد يعرفني، ولم أُرِدْ أن يعرفني أحد. هو الذي أخرجني من زاوية الخمول رغمًا عني. لقد أردت أن أعيش مستورا وأموت مستورا، ولكنه تعالى قال: سأذيع صيتك في كل العالم بالعزّة والشرف (حقيقة الوحي، الخزائن الروحانية مجلد ٢٢ ص ١٥٣).

إذًا، فمن خواص النور أنه ينكشف ويتجلى ولا يمكن أن يظل مستورا. إذا أشعل الإنسان نارَ حُبِّ الله تعالى في قلبه فلا بد أن يحدث تغيّرٌ طيّبٌ في نفسه، وليس في نفسه فحسب، بل في كل من هو على صلة به. من الممكن أن يكون هذا التغير ناقصا في بعض الناس، ولكن النور لا بد أن يظهر. فمثلاً لو وضعت شمعة مضيئة وراء ثوب أسود فلا بد أن يُرى من ورائه أيضًا ضوء ضئيل؛ كذلك من الممكن أن يكون في قلب المرء جذوة صغيرة من حب الله تعالى، ولكن الغطاء

الأسود من الذنوب يستر ضوءها ويقلل من نورها، ولكن من المحال أن يطفئها تماما. وكلما أزيل عنه هذا الثوب الأسود من الذنوب تجلى فيه النور الرباني بكل قوة.

كما أن الإسلام قد قدّم للناس بقوله تعالى ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ قاعدة هامة، وهي أن أساس التمدن يجب أن يُبنى على نور الله تعالى أي على وحيه، ويجب أن تُسنّ القوانين المدَنية من قبل الله الذي ليس لأحد معه قرابة ولا صداقة، بل الجميع متساوون عنده. فمثلا تُكثر النساء الشكوى بأن عملية سن القوانين في أيدي الرجال، فيسنّون ما يحلو لهم من القوانين. كذلك كان الهنود يقولون في زمن حكم الإنجليز على الهند إنهم يسنّون القوانين بما يتفق مع مصالحهم، لذا سيقومون بعصيان مدَني. إذًا، فمن المحال أن يطمئن قوم بقوانين يسنّها قوم آخرون، ولكن لا يمكن لأحد أن يقول عن القوانين التي يسنّها الله تعالى إنه قد انحاز فيها إلى قوم دون قوم. إنه تعالى لا يهمّه ما إذا كان القماش المصنوع في "لانكاشائر" يباع أم لا؟ وما إذا كان القطن الهندي يباع أم لا*. فكل هذه الأمور متساوية عنده. إذًا، فمن المحال صدور قانون سليم من الخطأ إلا من عند الله تعالى، وإلى ذلك يشير قوله تعالى ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾.. أي أن كل شيء يكتسب القوة منه تعالى. إن قانونه نابع من عين ﴿لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ﴾.. أي أنه تعالى لا ينحاز إلى أهل الشرق ولا إلى أهل الغرب، ولا إلى الرجال ولا إلى النساء، ولا يبخس الضعفاء حقوقهم، ولا يعطي الأقوياء أكثر مما يستحقون. والحق أنه من المحال أن يسود السلام في العالم ما لم نسلّم بحق الله تعالى وحده في وضع أسس التمدن، إذ ليس وراء النـــزاعات بين العمال وأصحاب العمل إلا قول كل فئة من الناس إن من حقهم هم أن يسنّوا القوانين المدنية بأنفسهم. لقد ظل الغرب يعترض

* يشير حضرة المفسر ﷺ هنا إلى النـــزاع الذي كان قد حصل بين أهل الهند والمستعمرين الإنجليز حول أسعار القطن الهندي الذي كان الإنجليز يشترونه بثمن بخس، ثم يصنعون منه النسيج في مصانع "لنكاشائر" بإنجلترا، ويبيعونه في الهند بأثمان باهظة. *(المترجم)*

على الإسلام ويقول أنه يجب أن لا يتدخل في الأمور المدَنية للناس. ولكنه يرجع اليوم إلى التعاليم الإسلامية بعد أن ظل يتخبّط زمنا طويلا. إن العالم قد أخذ يرجع إلى تعاليم الإسلام في جميع القضايا؛ سواء ما يخص العلاقات بين الزوجين أو بين الأبوين أو بين الأخوين أو بين الأخ والأخت أو بين الرعية والراعي أو بين حكومة وأخرى. لذلك قد أعلن الله تعالى هنا ﴿ا للهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾.. أي أن على الناس أن يرتكزوا على الوحي في نظامهم المدني وإلا لن تنتهي النـــزاعات والصراعات بينهم، ولن يقوم في الدنيا سلام دائم.

ثم يقول الله تعالى ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ.... إلخ﴾. والمشكاة كُوّة في الجدار لا تنفذ إلى الناحية الأخرى. علمًا أن الكوّة نوعان: أحدهما النافذة أو الشباك التي يمكن أن ينظر المرء من خلالها إلى الخارج، لأن الهدف من الشباك هو النظر إلى الخارج، كما يندرج في هذا النوع أيضًا الطاقة أي الفتحة التي تكون في أعلى الجدار ليدخل منها الهواء والضوء. والنوع الآخر من الكوة هي كُوّة ليست نافذة، وكانت تُبنى في جدران المساجد خاصة ليضعوا فيها السراج أو المصاحف. ومثل هذه الكوة تسمى مشكاة. فالله تعالى يبين هنا كيفية نوره فيقول إن مثل نوره ككوّة فيها مصباح موضوع داخل غطاء زجاجي عالي الجودة مضيء جدا كأنه نجم ثاقب.

لقد حصر الله تعالى نوره هنا في ثلاثة أشياء، مبينًا أن النور يبلغ كماله بثلاث طرق: الأولى المشكاة، والثانية المصباح، والثالثة الزجاجة.

وإنه لمن الغريب حقًا أن القرآن قد نـــزل في زمن لم يكن العلم فيه متقدما، وفي بلد يقال عن أهله أنهم لم يكونوا يعرفون ما العلم وما المدنية وما الحضارة، ونـــزل على رجل أُميّ، ومع ذلك قد بيّن موضوع اكتمال الضوء بيانًا يخيل وكأن عالمًا من القرن العشرين يبيّن حقيقة الضوء.

لقد سبق أن قلنا إن المشكاة هي كوّة غير نافذة. أما المصباح فهو في الحقيقة تلك الشعلة التي تصعد من الفتيل، أو هو السلك المتوهّج داخل المصباح الكهربائي. والمصباح في الأصل ما يجعل المكان مضيئًا كالصباح، وعليه فكُلُّ شيء يضيء

بشدة مصباح. إذًا، فالشعلة التي تصعد من الفتيل بعد إشعاله أو السلك المتوهّج الذي يضيء فجأةً هو المصباح. والله تعالى يصف هنا نوره بأن مثله كمصباح مضيء موضوع في كوّة داخل زجاجة.

وكل واحد منا يعرف نوعية الضوء الذي يخرج من قنديل "هوريكان". فعندما يشعل المرء عود ثقاب ويقرّبه إلى فتيله تخرج من الفتيل شعلة صفراء تملأ الغرفة بالدخان، ولو وصل هذا الدخان إلى مناخر شخص مرهف الحس عطَس بشدة كالمصاب بالزكام. ولكن بمجرد أن يصلح المرء هذا القنديل بوضع الغطاء الزجاجي عليه يتوقف الدخان فورًا ويتغير لون الشعلة ويصبح الضوء أقوى بعشرات الأضعاف بل بألف ضعف في بعض الأحيان، وتضيء الغرفة كلها.

وهناك فائدة أخرى لهذا الغطاء الزجاجي وهي أن ضوء القنديل لا ينطفئ بسببه رغم هبوب الرياح الشديدة. فلو خرجت بهذا القنديل في ليلة مطيرة في موسم الأمطار الغزيرة وفي عاصفة شديدة تهز السقوف مع المباني وتزعزعك من الأقدام، فإن هذا القنديل لن ينطفئ، لأن غطاءه يحميه من الرياح والأمطار. إذًا، فهذا الغطاء لا يزيد القنديل ضوءا فحسب بل يحميه من الانطفاء أيضا.

وهناك قناديل هي أقوى من قنديل "هوريكان" أيضًا. ولو رأيت المصابيح الكبيرة التي تضاء بها الغرف لوجدت أنهم يركّبون فيها قطعة معدنية مدورة تمنع ضوءها من الانتشار في كل جهة وتوجهه إلى الأمام فقط. وتحقيقا لهذا الهدف نفسه كان الناس في الماضي يضعون المصباح في الكوّة. ومثاله الآخر في هذا الزمان هو المصباح اليدوي (Torch) الذي يعمل بالبطارية، حيث يركبون حول مصباحه الصغير قطعة فضية لامعة فتوجّه الضوء للأمام وتوصله بعيدا، ولو أزيلت هذه القطعة الفضية منه لم يصل ضوء المصباح حتى عشرة أقدام. وهذه القطعة الفضية توصّل الضوء في بعض الأحيان لخمس مئة قدم بل حتى ألفي قدم. هذه القطعة الفضية تسمى بالإنجليزية (REFLECTOR) أي عاكسًا. أما المصابيح الكبيرة جدا فتصل أضواؤها إلى أبعد من ذلك نتيجة هذا العاكس، وهكذا يكتمل الضوء وينتفع به الناس أكبر انتفاع.

فهذه هي الأشياء الثلاثة التي يكتمل بها النور. إن الشعلة هي النار الحقيقية التي لا يمكن بدونها أن يكون أي نور، وتلك الشعلة في العالم الروحاني هي نور الله تعالى. أما الغطاء الزجاجي الذي يزيد الشعلة ضوءا فهو أنبياء الله تعالى. لا شك أن كل ذرة في الكون تعكس نور الله تعالى، ولكن الناس لا يرون ذلك النور، ولكن حين يأتي نبي من عند الله تعالى ويأخذ هذا النور بيده ويعرضه على الناس فالجميع يرونه. ومثله كأن تضيء سراجا، فتأتي نسمة الهواء وتطفئه، ولكنك لو وضعت عليه الغطاء الزجاجي فلا ينطفئ، بل يتلاشى الظلام فورا وتنتفع من ذلك النور. وهذا لا يعني أن الغطاء الزجاجي هو الأصل، وإنما الأصل هو ذلك النور الذي يسطع من السراج. ولكن بعض ذلك النور يضيع على شكل الدخان، لذلك فلا يمكن أن ينتفع منه الناس ما لم يوضع عليه الغطاء الزجاجي، وعندما يوضع هذا الغطاء فإنه يحمي النور من الضياع، فيزداد النور أضعافا كثيرة حتى ألفي ضعف. وتلك الزجاجات هم الأنبياء الذين يأخذون النور الإلهي الموجود في كل مكان، فيضعونه تحت زجاجتهم ويجعلونه نافعا للناس، فيبصره الناس كلهم، وتستنير به عيونهم، وينتفع الناس من هذا النور.

لقد بيّن الله تعالى هذا المعنى في مواضع أخرى من القرآن الكريم أيضا، فذكر في سورة طه أن موسى عليه السلام لما رأى نور الله تعالى على شكل نار قال ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾(طه: ١١). وقوله هذا يعني أن الآخرين الذين كانوا معه لم يروا تلك النار. وقد بين الله تعالى بذلك أن ظهوره في الدنيا يكون على شكلِ نارٍ ضئيلة قبل تجلّيه في شخص نبي، أي لا يتمكن قبل بعثة النبي من رؤيته تعالى إلا البعض من ذوي البصيرة الثاقبة فقط، ولكنه تعالى حين يتجلى على الدنيا من خلال شخص النبي تتحول نارُ تَجلّيه نورًا، أي يشتد ضوؤها ويكتمل من خلال النبوة كما يكتمل ضوء المصباح بالغطاء الزجاجي. بيد أن زمن ذلك النور يكون محدودا لأن النبي ليس محفوظا من الموت، فلكي يدوم هذا النور ويصل إلى أماكن بعيدة لا بد من تدبير؛ وتحقيقًا لهذا الهدف جعل الله تعالى أداة عاكسة روحانية وهي الخلافة. وكما أن المشكاة تمنع الضوء من الانتشار في جهات شتى وتوجهه إلى الجهة المطلوبة،

كذلك يحمي الخلفاء القوة القدسية للنبي المتجلية في جماعته من الضياع ويستغلّونها بحسب خطة معيّنة، الأمر الذي يحمي طاقات الجماعة من التشتت والضياع، فينجزون أعمالا كبيرة باستهلاك طاقة قليلة إذ لا يضيع من طاقاتهم شيء. ولولا الخلافة لاستُنـــزفت طاقات الجماعة في بعض المشاريع أكثر من اللازم، وتبقى هناك مشاريع أخرى من دون اهتمام ولا عناية، ولضاع الكثير من أموال الجماعة وجهودها ووقتها وعِلمها؛ إذ لم تبذل تحت نظام يمنع حدوث الفرقة والتشتت. فالنور الإلهي الذي يكتمل من خلال النبوة يمتد ويطول من خلال الخلافة. فترى أن نور الله تعالى لم ينته بوفاة الرسول ﷺ بل طال زمنه من خلال مشكاة خلافة أبي بكر ﷺ لعامَين وربع. ثم وُضع ذلك النور بعد وفاة أبي بكر في مشكاة خلافة عمر ﷺ فطالت مُدّتُه عشر سنين أخرى. ثم بعد عمر ﷺ وُضع ذلك النور في مشكاة عثمان بن عفان ﷺ وامتد عمره اثنتي عشرة سنة أخرى. ثم بعد عثمان ﷺ وُضع ذلك النور في مشكاة علي ﷺ، فامتد عمره أربعة أعوام وتسعة أشهر أخرى. وهذا يعني أن النور الإلهي امتد من خلال الخلافة ثلاثين سنة أخرى؛ بل لقد ظل هذا النور يتجلى في إسبانيا وبغداد طيلة الأربعة قرون من خلال الخلافة غير الراشدة أيضًا.

باختصار فكما أن العاكس المركب في المصباح اليدوي أو المصابيح الأخرى يوصل الضوء بعيدا، كذلك فإن الخلافة عاكس روحاني في المصباح الروحاني فيمدّد زمن نور النبوة والألوهية ويوصّله بعيدا.

إذا، فإن الله تعالى قد تحدث في هذه الآية عن الخلافة والنبوة والألوهية، وبيّن أن مثل نوره كمثل شعلة المصباح، وأن هذا النور يتجلى في كل ذرة من الكون، ولكن لا يمكن أن ينتفع منه الناس ما لم يأت تحت زجاجة النبوة. وبالفعل ترى أن الذين يريدون معرفة وجود البارئ تعالى من خلال تدبرهم في الكون، لا يزالون يتخبّطون ويتضرّرون دائمًا. لا ريب أن قول الله تعالى ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾(آل عمران:١٩١) قولٌ حق إذ توجد في السماوات والأرض آيات إلهية كثيرة، ولكن التفكير في خلق

السماوات والأرض نفسه يجعل الفلاسفة الأوروبين ملاحدة. وهذا يدل على أن النور الإلهي الموجود في خلق السماوات والأرض مثله كمثل شعلة المصباح المصحوبة بالدخان الذي يسبب الزكام ويخرّب العيون، ولا يزول هذا الدخان ما لم توضع عليه زجاجة النبوة، فتتحول الشعلة إلى نور. أما إذا أراد أحد أن يستنير بهذه الشعلة بدون النبوة فسينال بعض النور وأيضًا بعض الدخان الذي سيضر عينه وأنفه. ولذا فإن الذين يريدون أن يصلوا إلى الله تعالى من خلال تدبّرهم في الكون فقط يتخبّطون ويتعثّرون كثيرا، وفي بعض الأحيان يصبحون ملحدين بدل أن يصلوا إلى الله تعالى. ولكن الذي يريد أن يرى الله تعالى من خلال زجاجة النبوة ستسلم عيونه وأنفه من ضرر الدخان وسيجد نورا لطيفا نقيا من كل الشوائب يسرّه. وقد أشار المسيح الموعود عليه السلام إلى هذه الحقيقة في بيت شعر له بالفارسية وهو يخاطب ربه سبحانه وتعالى، فقال:

فلسفي كز عقل مي جويد ترا ديوانه هست

دور تر است از خـردهـا آن ره پنهـانِ تو

(چشمه مسيحي، الخزائن الروحانية ج ٢٠ ص ٣٩١)

أي أن الفيلسوف الذي يبحث عنك بعقله مجنون، لأن طريقك الخفي بعيد جدًّا عن العقول.

إذًا، فإن الذين يريدون الاطلاع على وجود البارئ تعالى من خلال التدبر في الكون فقط قد وُضعت في طريقهم اختبارات وشبهات، وذلك لكي يضطروا لوضع زجاجة النبوة على ذلك النور؛ لأنه كلما وُضعت مشكاة النبوة على النور الإلهي تغيّرَ كلية، فلا يُرى إلا نور على نور دون أي أثر للدخان المؤذي. وعندما يؤخذ هذا النور ويوضع في المشكاة يشتد ضوؤه وينتشر بعيدا جدًّا.

مجمل القول إن الله تعالى قد بيّن هنا ما يوجد بين الألوهية والنبوة والخلافة من علاقة وثيقة.

ولو قال قائل إن الخلافة أيضا تنتهي في نهاية المطاف، فالجواب أن انتهاء الخلافة واستمرارها منوط بسلوك الناس. فلو ظلوا طاهرين وصالحين ولم يتنكروا لنعمة الخلافة فمشكاة الخلافة قادرة أن تمد قوتهم وغلبتهم إلى مئات بل آلاف السنين. أما إذا رفضوا هذه النعمة بأنفسهم فلا يلومُنّ إلا أنفسهم.

بعد أن بينتُ لكم باختصار معنى قول الله تعالى ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ... إلخ﴾، أخبركم الآن أن هذه السورة كلها تتمحور حول موضوع واحد. فقد بدأ الله تعالى هذه السورة بالحديث عن الفاحشة وعن الذين يتهمون الآخرين بارتكابها. ثم بعد ذكر هذه الأمور مفصلة تحدَّثَ عن واقعة الإفك التي رُميت بها عائشة رضي الله عنها. ثم ذكر أمورا عديدة تتعلق بهذا الموضوع، وأوصى المؤمنين بما يجب عليهم فعله في هذه الأحوال. ثم بيّن الطرق التي إذا اتبعها الناس تلاشت الفاحشة من بينهم. وكل هذه المواضيع مذكورة حتى الآية رقم ٢٧. فحينًا ذكر عقوبة المدّعين، وحينًا آخر بيّن طريق التحقيق في هذه التهم، وتارةً أمر المتهمين بأن يأتوا بالبينة حسب الشرع، وتارة أخرى بيّن السبب وراء انتشار هذه التهم، وتارة ثالثة ذكر المنافذ التي تتسرب من خلالها السيئات. إذن، فكل تلك الآيات كانت تتحدث عن موضوع واحد. ولكن بعد ذلك قال الله تعالى فجأة ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ... إلخ﴾، ويحتار المرء هنا ويقول: ما العلاقة بين موضوع نور الله تعالى وبين مضمون الآيات السابقة؟

يظن بعض المفسرين أن القرآن الكريم خال من أي ترتيب، وأنه كلام لا ربط فيه – والعياذ بالله – وأن الآيات القرآنية تحتوي على مواضيع مختلفة لا ربط بينها، شأنها شأن حبات تلقى على الأرض فتتناثر هنا وهناك، وهؤلاء لا يرون في ذلك بأسًا. ولكن الذي هو مطّلع على تعليم المسيح الموعود عليه السلام يدرك جيدا أن هناك ترتيبًا محكمًا في جميع كلمات القرآن الكريم، لذلك فإنه يحتار حين يرى أن الله تعالى كان يتحدث من قبل عن الفاحشة والامتناع عن اتهام الناس بها، ثم بدأ هنا فجأة يتكلم عن موضوع آخر فقال ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ... إلخ﴾، ثم بدءًا من آية رقم ٥٦ من هذه السورة فتح موضوعًا آخر فقال ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا

مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(الآية:٥٦).. أي أنه تعالى قد تناول أولاً موضوع اتهام الآخرين بالزنى، ثم تحدث عن حادث الإفك ضد عائشة – رضي الله عنها – ثم بيّن موضوع ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ... إلخ﴾، ثم قال إنني أعِد المؤمنين من هذه الأمة أني سأجعل من بينهم خلفاء كما جعلت خلفاء في الذين كانوا من قبلهم، وسأقيم لهم دينهم في الدنيا، وأبدّل خوفهم أمنا، يعبدونني ولا يشركون بي شيئا. ومن كفر بهؤلاء الخلفاء فهو من الفاسقين. إذًا، فكان لا بد أن يتساءل المرء ويقول: لماذا تحدَّث الله أوّلاً عن تهمة الزنى، ثم عن النور، ثم عن الخلافة؟ يجب أن تكون هناك صلة وربط بين هذه المواضيع، وإلا سيقال أن القرآن – حاشا لله – مجموعة من مضامين مبعثرة لا توجد بينها أي صلة على الإطلاق؛ مع أن الكتاب النازل من عند الله العليم الحكيم يجب أن يكون أسمى من هذا العيب.

وجدير بالذكر هنا أن الله تعالى حين ذكر الذين يتهمون الآخرين كذبًا قال ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾. ثم عند الحديث عن الخلافة في نفس هذه السورة قال الله تعالى عن الذين يرفضون الخلفاء.. ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾. فترى أن الله تعالى قد استعمل هنا لمنكري الخلافة نفس الكلمات ونفس الوصف تقريبًا الذي استعمله في وصف الذين يتّهمون الآخرين بالفاحشة.

فالذي يؤمن بأن القرآن الكريم كتاب قد أنـــزله رب حكيم ويكون مطلعا على ما يوجد في مضامينه من ربط محكم وعلاقة وثيقة، فلا بد أن يتساءل في قلبه ويقول: ما هي الصلة بين هذه المواضيع الثلاثة؟

وإننا لو تدبّرنا في ما بيّنتُه من قبل بأن الله تعالى قد سلّط بقوله ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ... إلخ﴾ الضوءَ على الألوهية والنبوّة والخلافة، لانكشفت علينا

الصلة بين المواضيع الثلاثة بكل جلاء. ذلك لأن الله تعالى قد تحدّث في قوله تعالى ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ... إلخ﴾ عن الخلافة حديثًا مبدئيًا، وبيّن أنه لا بد للنبوة من خلافة لأنه تعالى يمدّ من خلالها زمن ظهور جلاله ويحفظ بها نوره محفوظا لزمن طويل من أجل منفعة الدنيا. فيتمنى القارئ تلقائيا بأن يوهب هو أيضًا هذه النعم، فوعد الله تعالى بتحقيق أمنيته وغيره من المؤمنين فقال ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا... إلخ﴾. مبينًا بأنه سيهب لهم هذه النعمة كما وهبها لجماعات الأنبياء السابقين. وهكذا انكشفت علينا صلة طبيعية رائعة بين قوله تعالى ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ... إلخ﴾ وقولِه تعالى ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا...إلخ﴾، مما يبعث على الغبطة والسرور ويزيد الإيمان.

ومع ذلك لا يزال هناك سؤال يحتاج إلى الإجابة: ما علاقة موضوع الخلافة بموضوع الفاحشة واتهام الناس بها الذي نوقش في أوائل هذه السورة؟ وما لم نعرف الصلة بين الموضوعين لم يثبت علينا، كما ينبغي، أن القرآن مرتب ترتيبا مُحكما. فأبيّن لكم الآن العلاقة بين أوائل هذه السورة والخلافة.

الظاهر أن الموضوع الرئيس في الآيات الأوائل من هذه السورة هو الفاحشة وخاصة إبطال التهمة التي أُلصقت بعائشة رضي الله عنها. والآن علينا أن نبحث عن الهدف الذي أراد المتهمون تحقيقه من وراء إلصاقهم هذه التهمة بعائشة؟ طبعًا لم يكن وراء ذلك عداء شخصي ضد عائشة، فما مبرّر أن يبغض المرءُ امرأة جالسة في البيت لا دخل لها في أمور السياسة والحكومة والقضاء وتقسيم المناصب والأموال والحروب والنـــزاعات والاقتصاد وما إلى ذلك؟ فثبت أنه ليس هناك سبب مباشر لعدائهم عائشةَ رضي الله عنها.

إذًا، فهنالك احتمالان فقط وراء إلصاقهم التهمة بعائشة؛ فإما أن تكون هذه التهمة صحيحة، وهو احتمال لا يصدّقه أي مؤمن إطلاقًا حتى للحظة واحدة، ولا سيما أن الله تعالى قد فند هذه التهمة الخبيثة من عرشه، والاحتمال الآخر أن يكون هؤلاء المنافقون المتهِمون يريدون إلحاق الضرر بأناس آخرين.

والآن علينا أن نفكر في الأشخاص الذين كان بإمكان المنافقين أو كبرائهم أن ينتقموا منهم بالتشهير بسمعتهم ويحققوا أهدافهم.

والقليل من التدبر يكشف لنا أن ثمة شخصين اثنين كان بإمكانهم الانتقام منهما من خلال اتهام عائشة، وهما الرسول ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه، إذ كانت زوجةَ الأول وابنةَ الثاني. إنهما الشخصان الوحيدان اللذان كان التشهير بسمعتهما يمكن أن ينفع بعض الناس من حيث السياسة أو العداء، أو بتعبير آخر كان بإمكانهم أن يحقّقوا بعض المآرب والأهداف بالتشهير بهاتين الشخصيتين، إذ لا مبرر أن تكون لهم أي رغبة في التشهير بعائشة رضي الله عنها. لم يكن لها أي خصم إلا ضرائرها، وقد يظن أحد أن ضرائرها قد تآمرن عليها ليُسقِطنها في نظر الرسول ﷺ. ولكن التاريخ يؤكد أن ضرائرها لم يتورطن في هذه القضية إطلاقا، وإذا سئلت إحداهن بهذا الصدد أثنت على عائشة خيرًا. تقول عائشة نفسها كنت أعتبر زينب بنت جحش هي خصمي الوحيد من بين جميع زوجات الرسول ﷺ، ولكني لن أنسى المعروف العظيم الذي صنعته بي زينب، حيث قامت بتفنيد التهمة التي أُلصقت بي بأشد مما فعلته أي امرأة أخرى (السيرة الحلبية الجزء الثاني ص ٣١٦-٣١٧: غزوة بني المصطلق).

إذًا، لم يكن هناك أي سبب أن يعادي هؤلاء المنافقون امرأة، فثبت أنه كان وراء رميهم عائشة بهذه التهمة إما عداؤهم للرسول ﷺ أو بغضهم لأبي بكر رضي الله عنه. لقد كان الرسول ﷺ يتبوأ منـــزلة ما كان لهؤلاء أن يطالوها، إنما الخطر الذي كانوا يستشعرونه أنهم ربما لن يستطيعوا تحقيق أهدافهم بعد وفاة الرسول ﷺ أيضًا، إذ كانوا يرون في أبي بكر رضي الله عنه خطرًا يهددهم بعد الرسول ﷺ حيث كان هو الشخص الوحيد الذي كان أهلا لأن يكون خليفة بعده ﷺ. فاتهموا عائشة رضي الله عنها لتسقط هي في نظر الرسول ﷺ وبالتالي يفقد أبو بكر المكانة المرموقة التي يتبوءها في نظر المسلمين فيتبرءون منه ولا يكنّون له الحب والاحترام اللذين يبدونهما نحوه وبالتالي لا يبقى هناك أي إمكانية ليخلف هو الرسولَ ﷺ بعد وفاته. ولهذا السبب قد ذكر القرآن الكريم موضوع الخلافة بعد الحديث عن واقعة الإفك.

فقد ورد في الحديث صراحة أن الصحابة كانوا يقولون فيما بينهم خلال حياة الرسول ﷺ إن أبا بكر أفضل الناس بعد الرسول ﷺ (أبو داود: كتاب السنة، باب في التفضيل). كما ورد أن النبي ﷺ قال لعائشة مرة: يا عائشة لقد وددت أن أعيّن أبا بكر خليفة بعدي، ولكني أعلم أن الله تعالى والمؤمنون لن يرضوا بسواه، فلم أكتب شيئا. (مسلم: كتاب الفضائل، باب من فضائل أبي بكر ﷺ)

إذًا، فالصحابة كانوا موقنين أن أبا بكر أفضل الناس بعد الرسول ﷺ وهو الأجدر بخلافته ﷺ. ذلك أنه لم يكن في الفترة المكية أي حكومة ولا نظام، ولكن بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة قامت الحكومة الإسلامية، وكان طبيعيا أن يخاف المنافقون من أن يخلف أحد بعد الرسول ﷺ، فيطول زمن الحكم الإسلامي فيهلكوا للأبد. ذلك لأن هجرة الرسول ﷺ كانت قد خيبت الكثير من آمالهم، إذ الثابت من التاريخ أنه كان في المدينة قبيلتان عربيتان: الأوس والخزرج، وكان أبناؤهما يتحاربون ويسفكون الدماء فيما بينهم دائما. فلما رأوا أن الحرب بينهم قد أدت إلى زوال هيبتهم بين الناس قرروا الهدنة والتصالح واتفقوا على أن يتخذوا أحدا من بينهم سيدا عليهم. فقرروا أن يكون عبد الله بن أبي بن سلول ملكا عليهم، فأخذوا يستعدون لذلك وأمروا بصناعة تاج لعبد الله بن أبي بن سلول. وفي تلك الأيام ذهبت قافلة من حجاج المدينة إلى مكة، وعندما عادوا ذكروا أن نبي آخر الزمان قد ظهر بمكة وأنهم قد بايعوه. فأخذ الناس يتكلمون حول دعوة الرسول ﷺ وبعد بضعة أيام ذهبت مجموعة أخرى إلى مكة وبايعت على يد الرسول ﷺ والتمسوا منه أن يبعث معهم معلما يقوم بتربيتهم وينشر الدعوة بينهم. فبعث الرسول ﷺ أحد صحابته معهم ليقوم بالدعوة بينهم، فدخل كثير من أهل المدينة في الإسلام. وكان الرسول ﷺ وصحابته في تلك الأيام عرضة لصنوف التعذيب والاضطهاد، فالتمس منه أهل المدينة أن يهاجر إليهم. فهاجر النبي ﷺ مع صحابته، وحُرم عبد الله بن أبي بن سلول من التتويج، إذ قد وجدوا سيد الكونين ﷺ فلم يعودوا بحاجة إلى أي ملك آخر. فلما رأى عبد الله بن أبي بن سلول أنه لم تعد هناك أي إمكانية لتتويجه استشاط غضبا ورغم أنه أسلم بالظاهر إلا أنه ظل يعمل جاهدًا لعرقلة طريق

الإسلام. ولما فشل في ذلك لم يعد أمامه إلا أن يتمنى وفاة الرسول ﷺ فيصبح هو ملكًا على المدينة. ولكن الله تعالى خيب أمنيته هذه أيضًا لأن ابنه كان مؤمنًا مخلصًا، وهذا يعني أنه لو صار عبد الله ملكًا لعاد الحكم بعد موته إلى الإسلام ثانية من خلال ابنه الذي كان مؤمنًا مخلصًا. (البخاري: كتاب التفسير، سورة آل عمران، والسيرة النبوية لابن هشام الجزء الثاني: نبذ من ذكر المنافقين، وبدء الأنصار، والعقبة الأولى)

كما خيب الله تعالى آماله بطريق آخر أيضًا، وذلك أنه بمجرد أن قام بين المسلمين النظام الجديد من خلال النبي ﷺ أخذوا يسألونه عن شتى الأمور بما فيها كيف يكون نظام الحكم في الإسلام؟ وماذا يحدث بالإسلام بعد وفاته ﷺ؟ وماذا على المسلمين فعله بهذا الصدد؟ فأوجس عبد الله بن أبي بن سلول خيفة من ذلك، ورأى أنه لن يكون له أي نصيب في الحكومة الإسلامية التي ستقوم على هذا المنوال، فأراد أن يغير مجرى الأحداث.

فلما أمعن النظر وجد أنه إذا كان أحد أهلاً لإدارة الحكومة وفق المبادئ الإسلامية فهو أبو بكر رضي الله عنه، وهو الوحيد الذي تتجه إليه أنظار المسلمين بعد الرسول ﷺ ويحترمونه أكثر من أي شخص آخر. فقرر التشهير بسمعة أبي بكر رضي الله عنه ليُسقطه في أعين الناس وفي عين النبي ﷺ أيضا. فلم يزل يتحين الفرص لتحقيق مآربه الخبيثة حتى وجدها في تخلّف عائشة رضي الله عنها في تلك الغزوة. فاتهمها بتلك التهمة الشنيعة البشعة التي قد اكتفى القرآن الكريم بالإشارة إليها، ولكنها مذكورة في الأحاديث بالتفصيل. وكما قلت كان هذا يستهدف بذلك أن يهين أبا بكر رضي الله عنه في أعين الناس وأن تفسد علاقاته بالنبي ﷺ وبالتالي يحول دون ذلك النظام الذي كان يراه أمرًا يقينيًا والذي يرى في قيامه خيبة لآماله.

و لم يكن عبد الله بن أبي بن سلول هو الوحيد الذي كان يحلم بتولي الحكم بعد الرسول ﷺ، بل كان هناك أناس آخرون مصابون بهذا الهوس. فقد ورد في الحديث أن مسيلمة الكذّاب جاء النبي ﷺ وقال له: عندي ألف محارب وأريد أن أبايعك مع هؤلاء. فقال له النبي ﷺ: إن الإسلام لا يفرّق بين الصغير والكبير، وإذا كان الحق قد انكشف عليك فيمكنك أن تبايع. قال: إنني أريد البيعة ولكن بشرط. قال ﷺ:

وما هو؟ قال: إنك اليوم ملكٌ على العرب، ولكن قبيلتي هي أقوى القبائل العربية، لذا فأبايعك على أن يكون لي الحكم بعدك. وكان في يد النبي ﷺ قطعةُ جريد، فقال: تقول إنك تبايع محمدا رسول الله إذا جعلك خليفة بعده؟ ولكني لستُ مستعدًا حتى لأعطيك قطعة جريد هذه خلاف حكم الله تعالى. فرجع مسيلمة ساخطا وأخذ يعادي الإسلام بكل قومه.*

إذًا، فإن مسيلمة الكذاب قد تمنى المُلك بعد الرسول ﷺ كما فعل عبد الله بن أبي بن سلول أيضا. والمنافق يرى موته بعيدا وموت الآخرين قريبًا، وهذا ما فعل عبد الله بن أبي بن سلول، فرأى موته بعيدا دون أن يدري أن الموت المرير سيفاجئه في حياة الرسول ﷺ. كان يتمنى أن يموت الرسول ﷺ ليكون له المُلك بعده على العرب، ولكنه وجد الآن أن المسلمين يعظّمون أبا بكر لصلاحه وتقواه، وأنه يصلي بالناس كلما لم يأتِ الرسول ﷺ للصلاة، ويستفتونه في المسائل إذا لم يجدوا فرصة سؤال الرسول ﷺ. فحزن عبد الله بن أبي بن سلول، فأراد أن يضع حدًا لهذا الوضع. فاتهم عائشة – رضي الله عنها – بتلك التهمة البشعة ليكرهها النبي ﷺ، فيؤدي ذلك إلى سقوط أبي بكر في أعين النبي ﷺ ويحط قدره بين المسلمين أيضًا، فلا يكون هناك أي إمكانية لخلافته بعد الرسول ﷺ. وقد بيّن الله تعالى هذا الأمر في قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.. أي أن الذين رموا عائشة بالتهمة كذبًا هم مجموعة منكم، ولا تظنوا أن هذا الأمر سيأتي بنتيجة سيئة، بل سيؤدي إلى خيركم ورقيّكم. فها نحن نبيّن لكم

* نص الحديث هو: "قَدِمَ مُسَيْلِمَةُ الْكَذَّابُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَجَعَلَ يَقُولُ: إِنْ جَعَلَ لِي مُحَمَّدٌ الأَمْرَ مِنْ بَعْدِه تَبِعْتُهُ. وَقَدِمَهَا فِي بَشَرٍ كَثِيرٍ مِنْ قَوْمِه. فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَعَهُ ثَابِتُ بْنُ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ وَفِي يَدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قِطْعَةُ جَرِيدٍ حَتَّى وَقَفَ عَلَى مُسَيْلِمَةَ فِي أَصْحَابِه، فَقَالَ: لَوْ سَأَلْتَنِي هَذِه الْقِطْعَةَ مَا أَعْطَيْتُكَهَا. وَلَنْ تَعْدُوَ أَمْرَ اللَّهِ فِيكَ، وَلَئِنْ أَدْبَرْتَ لَيَعْقِرَنَّكَ اللَّهُ. وَإِنِّي لأَرَاكَ الَّذِي أُرِيتُ فِيهِ مَا رَأَيْتُ." (البخاري: كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة) *(المترجم)*

القواعد والضوابط بشأن الخلافة، ونخبركم سلفا أن المنافقين سيسعون جاهدين للحيلولة دون قيام الخلافة، ولكنهم يفشلون فشلا ذريعا، وسنقيم الخلافة فيكم يقينًا، لأنها جزء من النبوة ووسيلة لحماية النور الرباني. وكلٌّ من هؤلاء المتهِمين سينال العقاب بقدر تورطه في الجريمة. وبالفعل قد جُلد كل واحد من هؤلاء المتورطين في هذه المؤامرة. أما الذي كان له فيها ضِلْعٌ أكبر وكان الرأس المدبر لها، فلن نكتفي بجَلْده بالسياط على أيدي الناس، بل سنعذبه أيضا. وبالفعل قد جُلد عبد الله بن أبي بن سلول بالسوط (السيرة الحلبية الجزء الثاني ص: ٣١٨: غزوة بني المصطلق). كما نال العذاب من الله تعالى حيث مات في حياة النبي ﷺ خائبًا خاسرًا. كما نال هذا العقاب بطريق آخر وهو أنه في غزوة بني المصطلق تنازع الأنصار والمهاجرون على أمر بسيط، فتدخل عبد الله بن أبي بن سلول الذي كان يتحيّن مثل هذه الفرص دائما، فقال للأنصار: يا أيها الأنصار، لم يحدث ما حدث إلا بأخطائكم. لقد آويتم هؤلاء المهاجرين، وقد ركبوا الآن أعناقكم. دَعُوني أَصِل إلى المدينة، فترون أن أعزَّ شخص فيها – يعني نفسه – سيُخرج أذلَّ شخص فيها – يعني محمدًا رسول الله ﷺ – والعياذ بالله. وكان ابن عبد الله بن أبي بن سلول مؤمنا مخلصا جدًّا، فلما سمع هذه الكلمات ثارت حفيظته، وأسرع إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله، لقد قال أبي كذا وكذا، وأرى أن عقابه ليس إلا القتل. "فإن كنتَ فاعلاً فمُرْني... فوالله لأحملنّ إليك رأسه قبل أن تقوم من مجلسك هذا. وإني لأخشى، يا رسول الله، أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تَدَعُني نفسي أن أنظر إلى قاتلِ أبي يمشي في الناس فأقتله... فقال رسول الله ﷺ: ما أردتُ قتله ولا أمرتُ به"، بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا. وبرغم أن النبي ﷺ قد عفا عنه إلا أن ابنه كان يحترق كمدًا، لأن أباه قد أساء للنبي ﷺ بتلك الكلمة الخبيثة النجسة إساءة كبيرة، فقرر الانتقام من أبيه. فلما اقترب الجيش المسلم من المدينة تقدّم ابنه الناس ووقف عند باب المدينة شاهرًا السيف وقال لأبيه: والله لن أدعك تدخل المدينة ما لم تعترف بلسانك بأن محمدا رسول الله ﷺ أعزُّ إنسان في المدينة، وأنك أذلُّ شخص فيها، وإذا لم تقرّ بذلك فسأقطعك بسيفي هذا إربًا. فلما سمع عبد الله بن

أبي بن سلول كلام ابنه خاف خوفًا شديدًا، فأقرّ عند باب المدينة أمام الناس وقال: أيها الناس هاأنا أعترف أمامكم أني أذل شخص في المدينة وإن محمدا رسول الله ﷺ أعزُّ إنسان فيها. فخلى ابنه سبيله وسمح له بدخول المدينة. (السيرة الحلبية الجزء الثاني ص ٣٠١-٣٠٦: غزوة بني المصطلق)

فهذا عذاب آخر أذاقه الله تعالى هذا الشخصَ على يد ابنه.

وبعد ذكر هذه التهمة التي ألصقها عبد الله بن أبي بن سلول بعائشة رضي الله عنها للحيلولة دون قيام الخلافة قال الله تعالى ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ... إلخ﴾.. أي أن الله نور السماوات والأرض، والنبوة تكمل هذا النور، والخلافة هي السبيل إلى نشر النور الإلهي في العالم والحفاظ عليه فترة طويلة. وكأن النبوة غطاء زجاجي يحمي ذلك النور من العواصف والرياح، أما الخلافة فهي العاكس الذي يوصل هذا النور بعيدا. ثم يقول الله تعالى: لن ندع مكائد المنافقين لتنجح في إفساد هذه الوسيلة العظيمة لنشر النور الإلهي في العالم، بل سنحافظ عليها ليبقى نورنا في الدنيا لمدة طويلة.

وهناك دليل آخر على أن النور المذكور في هذه الآية هو نور الخلافة، وهو ما قال الله تعالى في الآيتين التاليتين عن مكان ذلك النور فقال ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾.. أي أن نور الخلافة هذا يوجد في بعض البيوت. إن نور النبوة لم يوجد إلا في بيت واحد، أما نور الخلافة فيوجد في بعض البيوت. إنها بيوت بسيطة في أعين الناس، ولكن الله تعالى قد قرر أن يرفعها، ذلك لأن النبوة بعد الخلافة ترفع مكانة العائلة التي يكون منها الخليفة.

لقد بينت هذه الآية أن الله تعالى يتحدث هنا عن نور الخلافة، مبيّنا أن نور الخلافة وثيق الصلة بنور النبوة ونور الألوهية، وأن القضاء على نور الخلافة هو بمثابة القضاء على النورين الآخرين، لذا فلن نسمح لأحد بإطفائه، وسنجلّي هذا النور من خلال بيوت عديدة لكي يمتد زمن نور النبوة وبالتالي زمن ظهور الأنوار الإلهية.

وبالفعل صارت الخلافة إلى أبي بكر أوّلاً، ثم إلى عمر، ثم إلى عثمان، ثم إلى علي – رضي الله عنهم – لأن الله تعالى أراد لتلك البيوت أن تُرفع. علمًا أن كلمة ﴿تُرفَع﴾ هنا تدل على أن هؤلاء المتهمين كانوا يستهدفون أساسًا الحط من شأن هؤلاء الرجال بين القوم، ولكن الله قرر أن يرفع شأنهم؛ وإذا أراد الله تعالى إعزازهم فلن يضرهم اتهام متهِم.

هكذا ترى أن الله تعالى قد بيّن في سورة النور من بدايتها إلى نهايتها موضوعًا واحدًا، فأولاً تحدّث عن التهمة التي أُلصقت بعائشة، ثم بيّن هدفهم الأساس وراء هذه التهمة وهو أن يُخزوا أبا بكر ويفسدوا ما بينه وبين الرسول ﷺ من علاقات طيبة، فينحط أبو بكر في أعين المسلمين، وبالتالي لا يستطيع أن يخلف الرسول ﷺ. ذلك لأن عبد الله بن أبي بن سلول كان قد أدرك أن المسلمين لا يتطلعون إلى أحد بعد الرسول ﷺ إلا لأبي بكر، ولو أن أبا بكر صار خليفة، فلن تتحقق أحلامه بالملك. ومن أجل ذلك ذكر الله تعالى الخلافة مباشرة بعد ذكر تلك التهمة، موضّحًا أن هذه الخلافة ليست ملوكية، إنما هي سبب لقيام نور الله تعالى، وأنه تعالى قد تولى بنفسه إقامة الخلافة، وأن ضياعها هو بمنـــزلة ضياع نور النبوة ونور الألوهية؛ فلا بد أن يقيم الله تعالى هذا النور ويختار من يشاء خليفة، بل إنه تعالى يَعِدُ المسلمين بأنه لن يستخلف منهم خليفة واحدا، بل سيهب هذا المنصب لعدة أشخاص لكي يمتد هذا النور زمانًا. فمهما أثرتم التهم فلن تستطيعوا القضاء على الخلافة، ولن تقدروا على حرمان أبي بكر منها، لأن الخلافة نور، وأنّى للإنسان أن يطفئ بمكائده نورا هو وسيلة لظهور الله تعالى.

فترى أن هذا الشرح يكشف لنا ارتباطًا محكمًا بين جميع آيات سورة النور، فنجد بين مضمون الآيات الأوائل من هذه السورة وبين قول الله تعالى ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ وبين الآيات التي تليه ترابطًا قويًا، وتتراءى لنا مضامين هذه السورة كالمرآة الصافية.

إذًا، فالخلافة إنعام ربّاني ليس بوسع أحد أن يحول دونه. إنها وسيلة لقيام نور الله تعالى في الأرض، ومن أراد القضاء عليها فإنما يريد إطفاء نور الله تعالى. إن قيام الخلافة وعد يتحقق حتمًا، ولكن طول زمنها يتوقف على إخلاص المؤمنين.

ثم يقول الله تعالى ﴿لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ﴾. والشجرة الشرقية هي تلك التي تطلع عليها الشمس من المشرق فقط، ولا تصل إليها أشعتها من جهة الغرب لوجود حاجز أو شجرة أخرى. أما الشجرة الغربية هي تلك التي تصل إليها أشعة الشمس من المغرب دون المشرق.

وقد بيّن الله تعالى بذلك (أولا) أن الشريعة الإسلامية ذات طابع عالمي، فلا تختص بأهل الشرق وحدهم ولا بأهل الغرب وحدهم، بل هي لكل قوم ولكل زمن وتفتح أبواب الرقي لأبناء الجنس البشري كلهم. فلا يمكن للدنيا أن تتمتع بأمنٍ بدون العمل بتعاليم القرآن الكريم.

و(ثانيا) قد نبّه الله تعالى إلى أنه يجب على المسلمين أن لا ينحازوا عند انتخاب الخليفة إلى الشرق ولا إلى الغرب، بل ينبغي اختيار أجدر شخص بينهم خليفة لهم.

ثم يقول الله تعالى ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾.. أي أن زيت هذه الشجرة سريع الاشتعال لدرجة أنه مستعد للاشتعال وحده بدون نار. أما إذا أُضيء بالنار فيصبح نورًا على نور. والمراد أن هذا التعليم كامل لدرجة أن الفطرة السليمة تهفو إليه من تلقائها، أما إذا ظهر نبي من عند الله تعالى ولمسته نار الوحي فإن الفطرة السليمة تضيء العالم بأسره من خلال العمل بهذه الشريعة وبفضل صحبة النبي.

بيد أن الله تعالى يوضح هنا أن هذا النور لا يُكتسب بالجهود البشرية، وإنما يناله المرء بفضل الله تعالى، والله يعطي فضله من يشاء ويفصّل دينه دائمًا لفائدة الإنسانية والله بكل شيء عليم.